الوحي في الدراسات الاستشراقية

جولدتسيهر، مونتجمري وات، رودنسون - نموذجاً

زهرة بدرالدين*

المقدمة:

الاستشراق كلمة تطلق عرفاً على حركة ثقافية بدأت في أوروبا المسيحية، في القرن الثاني عشر للميلاد على الأغلب(١). وترجع البدايات الأولى للاستشراق لدى بعض الباحثين إلى مطلع القرن الحادي عشر، وقد لاقت ازدهاراً حقيقياً في القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث أخذت في فرنسا طابعاً علمياً على يد سلفستر دي ساسي (ت١٨٣٨م) الذي أصبح إمام المستشرقين في عصره(٢).

وقد حملت هذه الحركة عبر تاريخها الطويل ولا تزال تحمل أهدافاً متعددة ومتنوعة، وإن كان بعضها يعضد بعضها الآخر، غير أنها كانت تتبدل وتظهر بأنماط وصور مختلفة، تبعاً للحقبة التاريخية أو المرحلة التي كان يمر بها الاستشراق، منذ نشأته، وخلال مراحل تطوره حتى يومنا هذا.

وقد جُعلت شخصية الرسول المحور الأساس لبث سموم المستشرقين في مراحلهم المختلفة، بدعوى أنهم يريدون معرفة الرسول وشخصيته، وقد وجَّهت هذه الحركة إلى الإسلام والحضارة الإسلامية الكثير من الاتهامات والشكوك والشبهات، وتقولبت بأشكال عدة، فمنهم من تعرض لشخصية الرسول، ومنهم من نال من التاريخ والحضارة الإسلاميين، ومنهم من

* باحثة في الشؤون الإسلامية.

تصدى للتشكيك في عالمية الرسالة الإسلامية، حتى أثاروا الشكوك حول الكتب التي بَعَث بها النبي إلى الملوك والزعماء، ومنهم من تعرض لمصادر الوحي، وادعى بشريتها، وأنها مستقاة من وعاظ المسيحيين ورهبانهم ومن اليهود.

ومن بين هؤلاء من تناول مسألة تفسير الوحي الإلهي المُنزل على النبي العربي محمد(ص)؛ حيث وصل بعضهم إلى إنكار أصل وجوده، وكون مصدره إلهياً، ولكنه اعتقد به باعتبار النبي صادقاً أميناً لا يكذب. ومع ذلك فقد وقفوا أمام بعض الحالات التي كانت تنتاب الرسول، إبان نزول الوحي عليه، فأخذوا يفسرونها، ويعللونها، بتأويلات مختلفة؛ وفي ما يأتي عرض لموقف كل من أعلام المستشرقين: (أجناس جولدتسيهر، مونتجمري وات، ومكسيم رودنسون)، ومحاولة لنقد آرائهم، وإثبات المصدر الإلهي للوحي.

أولاً - عرض لآراء أعلام المستشرقين:

١- المستشرق: إجناس جولدتسيهر (١٨٥٠- ١٩٢١م):

يعد جولدتسيهر المؤسس الحقيقي للدراسات الإسلامية في أوروبا، ومن جملة دراساته موضوع الوحي المُنزل على الرسول(ص)، الذي أرجع فيها القرآن الكريم إلى مصادر داخلية وخارجية، وهو بذلك يريد إنكار الوحي الإلهي بما ينسجم والنظرة الإسلامية، ويعتبر أن النبي (ص) يُبشر برسالته، وتبشيره ليس إلا عبارة عن التقاط لمجموعة من المعارف والآراء الدينية، كان قد عرفها سابقاً أو استقاها من شخصيات يهودية ومسيحية، وهو يقول في هذا الصدد: «**لكي نُقدر عمل محمد من الوجهة التاريخية، ليس من الضروري أن نتساءل عما إذا كان تبشيره ابتكاراً وطريقاً من كل الوجوه ناشئاً عن روحه، وعما إذا كان يفتح طريقاً جديداً بحتاً. فتبشير النبي العربي ليس إلاّ مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية، عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه؛ وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت في رأيه كذلك ضرورية، لتثبيت ضرب من الحياة في الاتجاه الذي تريده الإرادة الإلهية.**

لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً، فأصبح - بإخلاص - على يقين بأنه أداة لهذا الوحي».[٣]

وينقل جولدتسيهر عن هارناك بأن محمداً(ص)، هو رجل فوق البشر يصيبه ما يصيب الرجال دون سواهم، والذين يستقون منها حياة جديدة، كانت قبل ذلك مجهولة، يتخذون منها قوة تهدم جميع العقبات، ومن ذلك حمية النبي أو الحواري[٤] ويرى بأنه: «خلال النصف الأول من حياته [النبي] اضطرته مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكاراً أخذ يجترها في قرارة نفسه، وهو منطو في تأملاته أثناء عزلته. ولميل إدراكه وشعوره للتأملات المجردة والتي يلمح فيها إثر حالته المرضية، نراه ينساق ضد العقلية الدينية والأخلاقية لقومه الأقربين والأبعدين».[٥]

ويحاول جولدتسيهر أن يستفيد من البيئة والحياة التي كان يعيشها الرسول وكيفية نشأته في مكة، واضطهاد الفقراء وغير ذلك: ليؤكد دعواه بأن الوحي ليس إلهياً وإنما هو من ادعاء النبي(ص)، معتبراً أن العزلة والخلوة التي كان يلجأ إليها في غار حراء حينما بلغ الأربعين من عمره، كانت السبب القوي الذي جعله يدعي أنه يوحى إليه: «حيث كان يتهيأ للأحلام القوية والرؤى الدينية، وتملّكه شعور بأن الله يدعوه بقوة تزداد شيئاً فشيئاً ليذهب إلى قومه منذراً إياهم، بما يؤدي بهم إلى خلاصهم من الخسران المبين. وبكلمة واحدة أحسّ بقوة لا يستطيع لها مقاومة تدفعه إلى أن يكون مربياً لشعبه أي منذره ومبشره».[٦]

ويرى أن هذه التأملات قد أثرت في نفس الرسول، وسيطرت على مخيلته بقوة: «وفي بدء رسالته كانت تأملاته تأخذ طريقها إلى الخارج في شكل أمثال مضروبة للحياة الأخرى (exchotologiques)، كانت تفرض نفسها على مخيلته بقوة تزداد يوماً بعد يوم، وهذه التأملات هي التي كوّنت الفكرة الأساسية التي بنى عليها تبشيره».[٧]

وأخيراً يشكك جولدتسيهر في مضمون الوحي، وخصوصاً في ما يتعلق بالدار الأخرى، ويرى أن هذا الدين لم يكن جديداً، بل كان مستفاداً من العهد القديم، وقد استقى أصوله من الخارج وعليه أقام تبشيره، وشيئاً فشيئاً نمّى هذه الاستعدادات الدينية في جماعة صغيرة حتى قوّى فيها فهماً للعالم مؤسساً على الحكم الإلهي، وإليه أشار بأن: «ما كان يبشر به خاصاً بالدار الأخرى، ليس إلا مجموعة مواد استقاها بصراحة من الخارج يقيناً، وأقام عليها التبشير. لقد أفاد من تاريخ العهد القديم، – وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء – ليذكّر على سبيل الإنذار والتمثيل، بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم، ووقفوا في طريقهم. ولهذا انضم محمد إلى سلسلة القدماء بوصفه آخرهم عهداً وخاتمهم [....] والوحي الذي نشره محمد في أرض

مكة لم يكن ليشير إلى دين جديد، فقد كان تعاليم واستعدادات دينية نمّاها في جماعة صغيرة، وقوّى في أفراد هذه الجماعة فهماً للعالم مؤسساً على الحكم الإلهي؛ ولكن لم يحدد تحديداً دقيقاً حينئذ، أشكال هذا الحكم أو مذاهبه».(٨)

٢- المستشرق وليم مونتجمري وات :(w.m watt)

هو بريطاني الأصل إنجليزي، نظر إلى ظاهرة الوحي نظرة أخرى تختلف عن سائر المستشرقين، فهو يعتقد بصدق النبي الذي يترتب عليه كون القرآن الكريم من عند الله تعالى وليس من عند نفسه يقول: «**ولما كان القرآن اعتماداً على صدق محمد، ليس ثمرة وعيه الخاص، فإنه من الأفضل النظر في علاقته بعقلية الذين [توجّه] إليهم ولمن أعد، أي لمحمد والمسلمين الأول وسائر المكيين**».(٩)

فالقرآن الكريم حسب اعتقاد وات ليس نتاج تفكير النبي محمد(ص)، إنما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه. وأن دوره ديني في الأصل، فلم يتراجع عنه حتى وإن كانت البيئة المكية تستلزم القيام بالأمور السياسية، ومن هنا، فإن النبي مجرد رسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة التي أوكلت إليه من قبل الله تعالى إلى أهل مكة، أولاً، ثم لكل العرب.(١٠)

وينطلق من صدقيته ليبين أنه ليس من نتاجه فيقول: «**وإذا اتخذنا موقفا يقوم على الاعتماد ما أمكن على الثقة بصدقه، يجب علينا أولاً أن نميز القرآن عن الوعي السوي لمحمد، لأن التمييز كان شيئاً أساسياً بالنسبة له ... [حيث كان يميز] بين ما ينزل عليه من مصدر خارق وبين ما يصدر عن أفكاره الخاصة**».(١١)

وأكثر من ذلك، فإنه حمل على أولئك الذين لم يتوانوا عبر التاريخ عن الإساءة إلى محمد (ص) واتهامه بأنه دجّال (imposteur)؛ حيث لم تتعرض شخصية كبيرة في الغرب حط من قدرها كشخصية النبي محمد (ص)، يقول: «**إذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدده، فيجب علينا في كل حالة من الحالات لا يقوم الدليل القاطع على ضدها، أن نتمسك بصلابة بصدقه**».(١٢)

وأما في ما يتعلق بمحتوى الوحي، ففي الوقت الذي يرى فيه جولدتسيهر بأن محمداً قد أخذه من عناصر أجنبية بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، حتى وصلت إلى أعماق نفسه، وأدركها بتأثيرات خارجية، لتصبح عقيدة ينطوي عليها قلبه،

فإن وات يراه صادراً عن وعي كامل وإدراك تام؛ إذ إنه كان لديه قدرة التمييز والفصل بين تفكيره الواعي وبين الرسالة، فقد وجد محمد الكلمات أو المحتوى الشفهي حاضراً في وعيه وكان محمد واعياً تماماً بأنه لا دخل [لا علاقة] لتفكيره الواعي في هذه الرسالة القرآنية التي تصله. وبتعبير آخر، فقد كان يعتقد أنه يمكنه أن يميز (أو يفصل) بين هذه الرسالة القرآنية وبين تفكيره الواعي، فَوَصْفُ تجربة الوحي فيه توقف إلى حد كبير عند المستوى السيكولوجي، أما بقية الملمح من الاعتقاد بأن «محتوى» الرسالة إنما هو مرسل من قبل الله [سبحانه]، فهو أمر تفسيري أو اجتهادي وليس لدينا عليه دليل حسي، بل وربما ليس لدينا حتى إمكانية تخيله. وربما كان مما يتماشى مع الطريقة الحديثة في التفكير أن نقول: إن «محتوى» الوحي وصل إلى «شعور» محمد أو «وعيه» من «لاشعوره».(١٣)

ومع ذلك، فإنه لا يقبل هذه الصياغة ويعتبرها محايدة نسبياً، لكنها لا تصلح؛ لأنها لم تدل على «مصدر» الوحي أو الجهة التي وصلنا منها.(١٤) ويفسر الوحي على أنه تجربة نبوية تتغير من وقت لآخر، وأنها اتخذت في الفترة المتأخرة شكلاً واحداً، ويذكر لهذه التجربة ملامح رئيسة(١٥):

١- محمد يشعر، وهو في حالة وعي أن هناك كلمات بعينها تُلقى في روعه أو تحضر في قلبه أو عقله الواعي.

٢- وإن هذه الكلمات والأفكار لم تكن أبداً نتيجة أي تفكير واعٍ من جانبه.

٣- إنه يعتقد أن هذه الكلمات قد ألقيت في روعه [عقله] من قبل «مندوب» أو «مبعوث» خارجي يتحدث إليه كملك.

٤- إنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله تعالى.

ويؤكد أن: «**هذه الملامح الأربعة الرئيسية [الرئيسة] موجودة في كل حالات الوحي كما وردت في القرآن الكريم، مع وجود تحفظين (PROVISOS)، أما في ما يتعلق بالملمح الأول فإنه يرى أن بعض الكلمات تصل إلى عقل الرسول أو قلبه لأنه يسمعها، وفي ما يتعلق بالملمح الثالث فإن المبعوث أو المندوب الخارجي لم يكن في كل الأحوال ملكاً**»(١٦)، ثم يصل إلى نتيجة مؤداها أن الوحي من الله تعالى كانت تحضر في عقله الواعي، وقد اختصر هذه الملامح الثلاثة بقوله: «**إن الكلمات المنزلة على محمد كانت تحضر في عقله الواعي، وإن**

تفكيره الشخصي لم يكن له دور في ذلك، وإن يقيناً جازماً كان يتملك فؤاده أن هذه الكلمات من الله».(١٧)

يرى وات بأنه ليس للمظاهر الجسدية لتلقي الوحي أية أهمية بالنسبة إلى الفقه، وإن كانت مهمة من الناحية التاريخية. ويرفض جميع الآراء الغربية التي عزت ظاهرة الوحي المحمدي إلى الصرع، والهلوسة، أو الجنون. ودافع عن الرسول دفاعاً مجيداً، ووصفه بالصادق: «لقد أكد أعداء الإسلام غالباً أن محمداً مصاب بالصرع (EPILEPTIQUE)، وأن تجاربه الدينية لهذا، لا قيمة لها؛ ولكن الأعراض الموصوفة لا تشبه أعراض الصرع؛ لأن هذا النقص يؤدي إلى تخاذل جسدي وعقلي، بينما ظل محمد حتى آخر حياته مالكاً لقواه العقلية. حتى ولو أمكن ادعاء ذلك، فإن الحجة تظل مناقضة لكل رأي سليم، إذا لم تقم إلا على الجهل والوهم؛ لأن المظاهر الجسدية الملازمة لا تثبت ولا تنفي قط بنفسها التجربة الدينية».(١٨)

ويؤكد أن: «على المؤرخ أن يعترف بصدق محمد المطلق في اعتقاده بأن الوحي، كان يأتيه من الخارج، وأنه يمكن أن يكون قبل نزول الوحي قد سمع من بعض الأشخاص قسماً من القصص التي يذكرها القرآن».(١٩)

وفي كتابه «محمد في المدينة» غاير كلامه عن الوحي ما أورده في كتابه «محمد في مكة»؛ ففي الأول كان يعتقد بأن كلماته وأفكاره ليست ناتجة عن تفكيره، وإنما ألقيت إليه من قبل «مندوب»، أو «مبعوث»، بينما في كتابه الثاني ينكر كونها من صنع الله، ويقول إن: «القول بأن محمداً كان صادقاً لا يعني أن القرآن وحي حق وأنه من صنع الله إذ يمكن أن نعتقد، بدون تناقض، أن محمداً كان مقتنعاً بأن الوحي ينزل عليه من عند الله، وأن نؤمن في نفس الوقت بأنه كان مخطئاً».(٢٠) ويرى بأن الوحي كان يخيب أمله بنفسه، ويستند إلى الآية الشريفة: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾.(٢١) يعتبر بأن هذه الآية تتهم الرسول بالخداع، وأنه ربما يخطئ، ولا يتناقض هذا مع القول بكونه صادقاً.

وفي موضع آخر، يذكر بأنه مهما كانت هناك من طريقة فقد كان هناك وسيلة ما، بدون شك لمعرفة ما إذا كان الوحي الذي ينزل عليه هو من عند الله حقاً، ويفسر القول بأنه

صادق، بمعنى أنه إذا كان ينظر للكلام الذي يسمعه على أنه نازل من عند الله، فذلك لأنه كان يعتقد ذلك حقاً، ولا يخلط بينه وبين أفكاره الشخصية ويرفض بوجود أسباب كامنة لاعتبار محمد دجالاً، بل هناك على العكس أسباب قوية تؤكد صدقه ونستطيع في مثل هذه الحالة الخاصة أن نبلغ درجة عالية من اليقين(٢٢).

وناقض نفسه مرة أخرى حين اعتبر أن الكلمات التي تصل إلى محمد ليست من «لاشعوره»، بل لم يوافق على ذلك، بينما في كتابه الإسلام والمسيحية اعتبر أنها وصلت إليه من (لاشعوره)(٢٣)، ويؤكد أنها وصلت إليه بطريقة أو أخرى قبل أن يصبح شعوره واعياً لها، ويخلص وات بأن »اللاشعور« مسألة غير بعيدة تماماً عن فكرة الوحي، وبتعبير آخر أن وضع اللاشعور في اعتبارنا على نحو ما، هو أمرٌ مطلوب عند تناولنا للوحي.(٢٤)

وتبنى «وات» الفكرة التي وصل إليها عالم النفس يونج والتي تنطلق من اللبيبيدو LIBIDO (الطاقة النفسية أو الطاقة الحيوية)، أو طاقة الحياة التي هي ينبوع النشاط في كل البشر. ويشرح فكرة اللبيبيدو بأنها موجودة في الرجل الفرد، وتعتبر شيئاً خاصاً بذاته، وجزئياً: «**يشترك فيه مع سائر أعضاء مجتمعه، بل وسائر أفراد الجنس البشري [....] وهذا الجزء الذي يشترك فيه مع غيره يسميه «اللاشعور الجمعي» (COLLECTIVE UNCONCIOUS). وإلى هذا «اللاشعور الجمعي» وتأثيره تعزى كثير من الأساطير الدينية، بل وكثير من المعتقدات الجامدة DOGMAS, خاصة تلك التي تتعلق بشخص (البطل) أو (الزعيم) أو (الطفل المقدس) THE DIVINE CHILD أو (العذراء) VIRGIN نجدها في كثير من الأديان، وقد يجد الإنسان عند تأمله في الشخوص الآنف ذكرها (البطل، الزعيم، العذراء، الطفل المقدس) وجعلها محور تعبده أن هناك ما يمكن تسميته بانطلاق الطاقة النفسية PSYCHICAL ENERGY خلاله (أي خلال الشخص المتأمل أو المتعبد) مما [ما] يمده بقوة لإنجاز ما كان يمكن أن يكون مستحيلاً بالنسبة له دون التأمل أو التعبد. من خلال هذه الشخوص الأربعة الآنف ذكرها [.... ,] فإنه وفقاً لأفكار يونج فإن معظم الأفكار الدينية تظهر ما يسمى بـ «اللاشعور الجمعي» عندما يتخذ طريقه إلى (الوعي) أو (الشعور). ومعظم الممارسات الدينية (العبادات، أو التطبيقات الدينية) هي استجابة واعية لهذه الأفكار».**(٢٥)

ويخلص وات من فكرة يونج، أن: «**الوحي الذي قامت على أساسه اليهودية والمسيحية والإسلام هو (المحتوى) الذي انطلق من (اللاشعور الجمعي) إلى (الشعور) أو (الوعي) وكان محتوى هذا (اللاشعور الجمعي) متسماً بالتباين الشديد والتعقيد**».(٢٦)

واعتبر الرسول شخصاً كبعض الأشخاص الموهوبين والفنانين والكتّاب الذين يتمتعون بـ «خيال خلاّق». وهذا الجانب (الخلاّق) موجود في (اللاشعور الجمعي)، وهذا يجعله أكثر مواءمة كوكيل AGENT أو (ممثل) لهذه الذات العليا التي تمثل مصدراً للمعرفة. ويعتبر (اللاشعور الجمعي) هو جانب لتوظيف طاقة الحياة أو الطاقة الحيوية LIFE ENERGY في البشر، وهذه الطاقة الحيوية هي عَصَبُ الحياة فيهم في ما يعيشون.(٢٧)

وهذا اللاشعور الجمعي له دور في تكوين الوحي، ويبين ذلك بقوله: «**عندما تنبثق الأفكار من «الشعور الجمعي» رغم إضافته أي اللاشعور الجمعي عنصراً إبداعياً (من لدنه) إليها، فإنها أي الأفكار ليست منفصلة تماماً عن الماضي، وإنما هي تطوير لما هو موجود بالفعل. وهذا بالتأكيد ما كان عليه الحال مع الأنبياء الواردين في العهد القديم**».(٢٨)

ويرفض وات كون القرآن كتاباً تاريخياً ويقول إنه: «**إذا أمكن اعتبار القرآن مصدراً مستقلاً للمعلومات عن الماضي السحيق، فإن هذا سيقوي الاعتقاد في نظر بعض الناس أنه من مصدر إلهي، لكن القرآن نفسه في الواقع لم يقدم لنا نفسه ككتاب تاريخي[...]**»(٢٩)، ويعتبره بأنه: «**ليس أكثر من انعكاس للأفكار التاريخية التي كانت سائدة في مكة وقت نزوله**».(٣٠)

٣- المستشرق مكسيم رودنسون:

رفض ما أورده بعض المستشرقين الذين حاولوا تفسير الوحي بإصابة الرسول بالصرع، من خلال الأعراض التي كانت تصيبه، ولم يكن لديه شك في أن هذه الحالة التي كانت تعتري الرسول أثناء تلقيه الوحي، تختلف عن المصابين به فعلاً، ويستدل بأن من يُصاب بالصرع لا يذكر إطلاقاً ما مرّ به إبانها، بل إنه ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تاماً، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حلّ به خلالها، ذلك أن حركة الشعور والتفكير يتعطلان فيه تمام التعطيل.

«**هذه الأعراض التي تصيب المرضى من الصرع، لا تنطبق وما يعتري الرسول من حالات نفسية وفسيولوجية أثناء نزول الوحي عليه؛ لأنه كان يذكر بدقة بالغة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه، كما أن نزول الوحي لم يكن مقترناً دوماً بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحي غاية التنبه، بل إنه كثيراً ما ينزل الوحي والنبي في تمام يقظته**

العادية».[٣١] وهو يقدم آراءً مقنعة عن إخلاص الرسول وحسن نيته وصدقيته. لكن عندما يفسر الوحي الإلهي، فهو يفسره من وجهة نظره فحسب، لا من وجهة النظر الإسلامية؛ لذلك فهو يشرح هذا في مقدمة كتابه «محمد» عندما يقول: «**ألتمس من القراء المسلمين العذر عند إنكاري لبعض الوقائع التي يعتقدون صحتها ذلك أن العلماء الأوروبيين طبقوا هذا المنهج على علومهم أيضاً [...]**». ويقول: «**كيف يستطيع ملحد مثلي أن يدرس مؤسس الدين الإسلامي؟ [...] خاصة أن الملحدين لا يؤمنون بهذه الأفكار الدينية التي يقول عنها أصحابها: إنها تأتي إليهم من العالم الآخر**»، ويجيب قائلاً: «**يحق للملحد إنكار مثل هذه الأفكار ولكن لا يحق له عدم تقدير هذه الرسالات**».[٣٢]

ينقل «**مكسيم رودنسون**» في بداية كتابه، كيفية نزول الوحي، ويتعرض لآراء بعض العلماء المسلمين، ويذكر بعض الروايات المستقاة عن عائشة التي تتحدث عن كيفية الوحي، والآثار الخارجية التي تعتري الرسول أثناء تلقيه الوحي، والاضطراب الذي حصل له حينما نزلت الآيات الأولى عليه، وذهابه برفقة خديجة إلى ورقة بن نوفل لاستشارته في ما اعتراه من مظاهر لم يجد لها تفسيراً مقنعاً، ثم اقتناعه بالرسالة التي كُلف بتبليغها من الله وتعوده الوحي شيئاً فشيئاً. وعند انتهائه من سرد ذلك يطرح سؤالاً مؤداه: «**هل كان محمد صادقاً في ما أبلغ به**»؟ وفي إجابته عن هذا السؤال، فإنه يطرح جانباً جميع الأفكار الغربية التي تصف الرسول بالمحتال والمخادع، والمزور، ويطرح كذلك جميع الأفكار التي تعزو الوحي إلى مرض الرسول النفسي والعصبي، ويردُ أفكار بعض المستشرقين الذي يصفون الرسالة المحمدية باعتبارها إصلاحاً اجتماعياً لمجتمعه الغارق في الجهالة، وصراع الطبقات ولكنه يؤكد حقيقةً، يراها جوهرية لتفسير الوحي الإلهي، وهي أن محمداً – حسب قوله – كانت له ميول زهدية أملتها ظروف حياته الشخصية عندما كان طفلاً، ومراهقاً ورجلاً ناضجاً. وأنه بدأ يمارس حياة «الزهد» – التي هي إحدى درجات الصوفية – منذ زمن مبكر من حياته. ومن خلال حياته الزاهدة الرافضة لكل ألوان الملذات والآخذة بأسباب التعبد الصوتية والمرئية، نجدها أيضاً لدى المصابين بالأمراض العقلية كالهستيريا وانفصام الشخصية. إلا أن كبار الصوفيين يتعرضون لهذه المظاهر غير العادية ويعتادونها. «**ولكن هل المظاهر الشخصية التي يطبقها الزهاد على أنفسهم تؤدي إلى الإصابة بهذه الأمراض العقلية والنفسية**»؟ يرد **رودنسون** على هذا السؤال قائلاً: «**إنه يترك للمتخصصين في علم النفس الإجابة عنه**».[٣٣]

واستفاد رودنسون من عزلة الرسول ولجوئه إلى غار حراء للعبادة، ليبني نظريته القائلة: إن محمداً قد وصل إلى مرحلة من مراحل الزهد التي مرّ بها، ولم يشعر أنه وصل إلى مرحلة الاتحاد بالله، ومن هنا، فإن تلقيه للوحي الذي يتمثل به صوتاً وصورة هو مرحلة من مراحل التصوف التي وصل إليها. ويرفض أن تكون هذه الحالة نوعاً من التدخل الشيطاني أو الأرواح الشريرة، أو نتيجة الخيال الطبيعي أو المرض النفسي.(٣٤)

وعلى هذه النظرية بنى فكرته عن الوحي الذي ينزل على الرسول حيث لا يمكن تشبيهها بالأمراض النفسية، ولا بتدخل الشياطين وغيرها، وإنما كانت مرحلة ونتيجة، وصل إليها الرسول، وهي درجة من درجات التصوف، التي لم تصل إلى الاتحاد بالله، إلاّ أنها تقع بين مرحلة الزهد والتأمل، والتعبد، وبين مرحلة الاتحاد مع الله والاندماج فيه.

ويجيب رودنسون عن الرأي القائل بأن ما يصيب الرسول من حالات هي حالات صرع، بما أجاب به مونتجمري وات سابقاً.

ثانياً - النقد و الردود:

١- آراء المستشرقين في سطور (بين الالتقاء والافتراق):

يخلص جولدتسيهر إلى القول بأن للقرآن مصادر داخلية وخارجية، وقد استقى الرسول معارفه وآراءه الدينية من اليهود والمسيحية. بينما يعتقد وات على العكس من ذلك، بأن الوحي المنزل على الرسول(ص) ليس كلامه، ولا نتاج فكره، بل هو كلام الله تعالى، وأنه ليس أكثر من رسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة. ولكن هذا عنده في كتاب آخر – كما سيأتي – اعتقاد الرسول ولا يعني أنه الذي حدث فعلاً.

بينما رودنسون لم يتعرض لهذا الأمر بل هو يعترف بأن الإنسان الملحد لا يستطيع درس مؤسس الدين الإسلامي كما يدرسه المسلم، وهو يرفض ما قيل عنه (الرسول) وما وصف به بالصرع والهلوسة وغيرها، ويستدل على ذلك بأدلة نافية للمرض ومؤكدة على صدقه.

ولكنه يستفيد من الطريقة الزهدية التي عاشها في بيئته ليعتبرها إحدى درجات التصوف، ويبين بأن الوحي من مراحله ولكن الرسول لم يصل إلى الاتحاد.

أما جولدتسيهر، فعندما تعرض لعزلة الرسول، بيّن أنها كانت السبب في تبشيره حيث

أعطته قوة وشعوراً يدعوه لينذر قومه، وهذه قد أثرت على مخيلته بقوة. وينقل عن **هارناك** أنه كان فوق البشر، تأثر من عزلته ليثور ضد العقلية الدينية والأخلاقية لقومه.

بينما لم يتطرق وات إلى العزلة أبداً، ولم يركّز عليها في دراساته بل اعتمد على فكرة يونج الليبيدو «اللاشعور الجمعي» ليؤسس فكرة نشأة الوحي عند الرسول.

ومع ذلك فقد نراه يناقض نفسه في كتبه، ففي كتابه «محمد في مكة» يصرّح عن اعتقاده بصدق النبي، بينما في كتابه «محمد في المدينة» يذكر بأن الاعتقاد بصدقه لا يعني أنه لا يخطئ، ولا يعني أن القرآن هو وحي، وأنه من صنع الله إذ يمكن الاعتقاد بأن محمداً مقتنع بما ينزل من الله وفي نفس الوقت يمكن أن يكون مخطئاً.

هذا مضافاً إلى التناقض السالف الذكر الذي وقع فيه وات في ما يرتبط بالكلمات التي تصل إلى محمد وأنها من لا شعوره، فوافق على ذلك في كتابه «الإسلام والمسيحية»، بينما رفضه في كتابه «محمد في مكة».

ويستفيد **وات** من فكرة الليبيدو ليعتمد الخيال الخلاّق الذي تميز به الرسول كغيره من الموهوبين، ويعتبر أن هذا الخيال موجود في «اللاشعور الجمعي»، وله دور في تكوين الوحي عنده، وهذه الأفكار ليست منفصلة عن الماضي، بل هي تطوير لما هو موجود بالفعل.

لكن لا نرى هذه الاستنتاجات لدى **جولدتسيهر** أو نجد فكرة الخيال الخلاّق عند **رودنسون**.

يبدو من خلال عرض آراء هؤلاء الأعلام من المستشرقين والدقة في فهم كيفية دراسة كل منهم لشخصية الرسول، وفهمهم للوحي المنزل عليه أنهم لم يعتمدوا على منهج علمي صحيح. ولم يكن هناك دراسة موضوعية لأبحاثهم، بل كانت استنتاجات شخصية مزاجية، اعتمدت على فهمهم الخاص، دون النظر إلى أدلة موضوعية.

وهذا التعارض والتهافت الموجود بين كل منهم والموجود بين آراء الشخص نفسه دليل على ذلك.

يُستشفُّ من هذه الدراسات أنها:

١- كوّنت صورة مشوهة عن الإسلام في أوروبا، والتي كانت تستمد مواردها الأولية من مصادر مستشرقين أوائل قد سبقوهم إلى كتابتها.

٢- كوّنت شكلاً منهجياً وإطاراً فكرياً في أوروبا اعتبرها الجميع مسلمات وحقائق رغم ما توصل إليه الكثيرون من نقائض لها في أبحاثهم.

٣- يظهر منها حقد دفين لدى عامة المستشرقين على الإسلام والأمة العربية بالذات، رغم ما يدعونه من التجرد والموضوعية والعلمية.

٢- الرد على جولدتسيهر:

ما ذهب إليه من أن الوحي هو عبارة عن اجترار لتلك الأفكار الخارجية، التي حصلت له إبان عزلته، وأن ما يصيب الرسول من حالات إبان نزول الوحي هي مسألة نفسية، ترجع إلى تشبيه المرء بحالة خاصة من فرط استغراقه فيها فهي: «**فرضية حاولت تفسير القرآن من خلال علم النفس، وهو تفسير خاطئ، لأن علم النفس لم يصل بعد إلى درجة من الدقة والتطور بحيث يفرض طريقته في البحث على الميادين الأخرى حتى يمكنه تفسير ظاهرة النبوة على ضوء التحليل النفسي الحديث**».(٣٥)

ومن ثم لم يوضح لنا تلك الأمراض التي تصيب عظماء الرجال، ومن المفروض أن المرض مهما كانت طبيعته، نفسية أو جسدية سوف يؤدي إلى هبوط في القوى العقلية والجسدية، بنسبة شدة المرض وضعفه، وما نراه من حالات الرسول أنه ظل واعياً قبل الوحي وبعده طيلة العصر القرآني ومراحل النزول، ولم تضعف قواه العقلية أبداً.

أما مسألة إرجاع الوحي إلى مصادر خارجية وداخلية، فهذا كلام مرفوض أيضاً وذلك:

١- لأن عدم كونه من مصادر خارجية يعود إلى:

أ- وجود مجموعة من الآيات الشريفة تُبطل هذا القول وتشير إلى أن القرآن من عند الله وتندد بالكفار والمشركين، وباليهود والنصارى، فلو كان من مصادر يهودية أو مسيحية كما ادعى، لما وجدت هذه الآيات. ووجودها واحتواء القرآن عليها دليل على أن القرآن منزل من قبل عليم خبير: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾.(٣٦) ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السماوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾.(٣٧) وعدم ادعاء اليهود المعاصرين له (ص) هذا، وجهلهم بالمنزل يدل على ذلك.

ب- وجود التناقض في كتب الأناجيل نفسها وتعددها، وهي كتبت بأيدي بعض الرهبان بينما القرآن الكريم يختلف تماماً عن العهد القديم والأناجيل الموجودة.

ج- لو كان ما يزعمه **جولدتسيهر** صحيحاً وغيره من المستشرقين لكان اليهود أعرف الناس بهذا الأمر.

وقد جاء رفض هذا الموضوع على لسان العالم أرنست في كتابه (الإسلام والمسيحية الحقيقية):

«إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الأناجيل ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله، إن مرد النزاع القائم بين المسيحية اليوم وبين المسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس، ذلك المارق اليهودي المسيحي وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم. وأن بولس هو واضع ذلك المزيج من القصص والأحاديث المتعارضة. ومن هنا، فإن هناك اختلافاً أساسياً من حيث الأسلوب لأن لكل إنجيل كاتباً (لوقا، متى، يوحنا، مرقص، برنابا)».(٣٨)

٢- وأما الدليل على عدم كون الوحي من مصدر داخلي:

لو كان مصدره محمداً نفسه، لكان من الأجدر للنبي أن يفتخر بنسبته إليه، وادعاؤه الألوهية، وأكثر من ذلك، إن القوم قد عرضوا عليه الكثير من المغريات من المال والغنى والرئاسة والسؤدد حتى يترك هذه الدعوة، ومع ذلك قد رفض بشدة وكان يدعو لعبادة الله الواحد الأحد، وتحمل عذابات القوم والمشركين واضطهادهم له ولأمته. وكل ذلك يؤكد عدم بشرية القرآن الكريم، ويدل على حقيقة أن الوحي منزل من عند الله العزيز: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾.(٣٩)

٣. الرد على رودنسون:

أراد **رودنسون** من كلامه هذا، أن يفسّر الوحي بالكشف الذي يحصل عند بعض الناس، أمثال المتصوفين، الكهان، وغيرهم، والذي يحصل نتيجة التفكير الطويل، والتأمل الشديد، والرياضة الروحية، والسهر المتواصل، وغيرها من العوامل النابعة عن الذات البشرية الداخلية.

ويبطل هذا التفسير وجود الفرق بين الكشف والإلهام وبين الوحي الإلهي، معللاً: «**أن لكل نبوة شعوراً أو إدراكاً ووعياً كاملاً بينما الكشف والإلهام لا يرتقيان إلى درجة النبوة والوحي**».(٤٠)

ويتساءل **ساسي سالم الحاج** كيف توصل **رودنسون**: «**إلى تلك النتيجة العلمية التي**

حاول من خلالها البرهنة على أن النبي كان صوفياً. فالصوفية لون من ألوان السلوك يجتنب فيه الذين يسلكونه الترف، ويختارون البساطة في لباسهم ومعاشهم. كما يعني هذا الاصطلاح الاجتناب الاختياري للملاذ العابرة، والابتعاد عن الحياة الاجتماعية خصوصاً الزواج، وكبح جماح النفس وتطهيرها...»[٤١] وهذه التصرفات منافية تماماً لتعاليم الإسلام، بل إن الإسلام رفضها وذمّ فاعلها، وقد جاء ذلك على لسان الرسول نفسه حينما ذم أقواماً تركوا الزواج، أو الطعام اللذيذ ... وجعل هذه الأمور من سنته ومن ترك سنته فليس منه.

ولا يمكن أن يفسر الوحي بالكشف الذي عبر عنه رودنسون ووات، فبالإضافة إلى أن الكشف يفترق عن الوحي ويختلف، فإن: «مصطلح (وحي) الذي يطلقه القرآن على هذه الظاهرة إنما يعبر عنه بالكلمات (intuition المكاشفة أو الوحي النفسي) أو (inspiration إلهام)، لكن هذه الكلمة الأخيرة، ليس لها أي مدلول نفسي محدد، مع أنها مستخدمة عموماً في علم النفس. أما الكلمة الأولى فلها – على العكس – مدلول، ولكنه لا يتفق مع الأحوال الظاهرة الملحوظة لدى النبي، في حالة التلقي التي يعانيها أثناء نزول الوحي».[٤٢]

٤- الرد على مونتجمري وات:

«إن دراسات وات في حقل السيرة لا تخلو من إطراء لبعض جوانبها، لكنه سرعان ما يهدم الجوانب المضيئة التي عمل على إبرازها، فهو يبني على ضوء الرؤية الإسلامية، ثم يهدم البناء، ليؤكد أنها أسست على ضوء منهجية ورؤية خاطئة في الرؤية الإسلامية للواقعة، ويثبت الرؤية الغربية الاستشراقية «الهدم»».[٤٣]

يقول: إن مصدر القرآن هو الخيال الخلاّق الذي كان يتمتع به الرسول كما سائر المتميزين ويرجع إلى اللاوعي الجماعي حسب فكرة يونج. وقد حاول التوفيق بين هذين الرأيين، إلا أنه يؤكد عدم تفسير الوحي بإصابة النبي بالهلوسة، والصرع و غيرهما من الأمراض العصبية، وقد أكد على صدقه في طيات كتبه، ومخلصا في دعوته، إلا أن نظريته للوحي تخالف النظرية الإسلامية شأنه شأن غيره من المستشرقين.[٤٤]

لكن: «هذا الخيال الذي تحدث عنه وات قد فسره شخصياً بأن رجال الدين يرجعونه إلى الله، ومن خلال هذا التفسير يكون الله هو مصدر هذا الخيال الخلاّق، ولا أحد سواه خاصة إذا كانت هذه الأفكار الخلاّقة أعلى من الإنسان ذاته وأسمى من عتبة الشعور».[٤٥]

وأما مسالة «اللاوعي الجماعي» التي تبناها من يونج وبنى عليها ظاهرة الوحي الإلهي، إضافة إلى أنها تعتبر مصدراً لكل وحي ديني سواء كان الإسلام أو النصرانية أو اليهودية بنظره، فهي مسألة تستبطن معاني «الكشف»، أو «الإلهام»، أو «الحدس الباطني أو الجماعي»، وهذا ما يزعزع فكرة الوحي الإلهي التي يرفضها الإسلام ويخالفها العقل. ما دفع صبحي الصالح إلى التحذير من عدم إقصاء لفظ الكشف عن ظاهرة الوحي، يقول: **«سينبغي لزاماً علينا – خشية أن نقع في اللبس من أثر استعمال الكلمات في غير مواضعها – أن نقصي عن ظاهرة الوحي لفظ الكشف الذي كنا فيه، وما يشبهه من ألفاظ الإلهام والحدس الباطني والشعور الداخلي، أو «اللاشعور» التي يتغنى بها شبابنا المثقفون محاكاة للأعاجم والمستعجمين، يحاولون بها أو ببعضها أن يفسروا بسذاجة عجيبة ظاهرة الوحي عند النبيين وعند محمد خاتم النبيين [...]ما أيسر أن نثبت مدلول الكشف لكل من يدعيه، ثم ننكر عليه مدلول الوحي ولو ظل يدعيه؟».**(٤٦)

والكشف: **«يخلو من الدلالة النفسية الواضحة المحددة؛ لأنه غالباً ما يكون ثمرة من ثمار الكد والجهد أو أثراً من آثار الرياضة الروحية أو نتيجة للتفكير الطويل، فلا ينشئ في النفس يقيناً كاملاً ولا شبه كامل، بل يظل أمراً شخصياً ذاتياً لا يتلقى الحقيقة من مصدر أعلى وأسمى، إن كشف العارفين كإلهام الواصلين وجدان تعرفه النفس معرفة دون اليقين وتنساق إليه من غير شعور بمصدره الحقيقي...».**(٤٧)

«وطبيعة الحقائق الدينية والأخبار الغيبية في ظاهرة الوحي تأبى الخضوع لهذه الأساليب «اللاشعورية» التي تستشف حجاب المجهول بالفراسة الذكية الخفية والحدس الباطني السريع».(٤٨)

وهذا التفسير الذي لجأ إليه **وات** أو **رودنسون**، بأن النبي يتراءى له الكشف، يريدون بذلك تفسير ظاهرة الوحي بالمكاشفة أحياناً، وبالوحي النفسي تارة أخرى، أو الإلهام المطلق، ولا يتوافق ذلك مع دراسة المنهج الموضوعي لظاهرة الوحي. إذ إن كلمة الإلهام ليس لها أي مدلول نفسي محدد، مع أنها مستخدمة عموماً لكي ترد معنى الوحي إلى ميدان علم النفس.

١– **فمن الوجهة النفسية** نرى أن الوحي النفسي يدور حول معرفة مباشرة لموضوع قابل للتفكير، والوحي الإلهي يجب أن يأخذ معنى المعرفة التلقائية والمطلقة لموضوع لا يشغل التفكير، وأيضاً غير قابل للتفكير. ولا يصحب المكاشفة أية ظاهرة نفسية أو سمعية أو بصرية أو عصبية كتقلص العضلات الذي نلحظه في حالة الرسول.

٢- وأما من الوجهة العقلية، فهي (المكاشفة) لا تنتج عند صاحبها يقيناً كاملاً، بل كأنما توجد نصف يقين وهو ما يعبر عنه بالاحتمال، والاحتمال معرفة يأتي برهانها بعدها. بينما يقين النبي كان كاملاً مع وثوقه بأن المعرفة الموحى بها غير شخصية وطارئة وخارجة عن ذات.(٤٩)

«والمكاشفة لا تنتج عند صاحبها يقيناً كاملاً، ويقين النبي بالوحي قد كان كاملاً».(٥٠)

«والوحي الإلهي هو الفعل الذي يكشف به الله للإنسان عن الحقائق التي تجاوز نطاق عقله».(٥١).

«وإذا كان الوحي فعلاً متميزاً، فهو صادر عن فاعل مريد، وهذا الفاعل المريد هو الله تعالى، وليس الإلهام والكشف كذلك، وهذا ما يميز الوحي عن المكاشفة، والوحي النفسي، والإلهام، إذ إن مدد الإلهام يعود عادة إلى الميدان التجريبي لعلم النفس، ونزعة الوحي النفسي في انتداحها تعتمد على التفكير في الاستنباط، والمكاشفة تتأرجح بين الشك واليقين».(٥٢)

فالوحي إذن لا يخضع للتجربة أو التفكير ولا مجال معه للشك، وهو ظاهرة شعورية تتسم بالوعي والإدراك، وصادر عن فاعل مريد وهو الله، بينما حالات الكشف والإلهام والإيحاء النفسي حالات لاشعورية ولا إرادية، قابلة للشك والترديد.(٥٣)

وقد ورد في المعجم الفلسفي الفرق بين الإلهام والوحي: «بأن مصدر الإلهام باطني، ومصدر الوحي خارجي، بل الإلهام من الكشف المعنوي، و الوحي من الواقع الشهودي، لأنه إنما يحصل بشهود الملك وسماع كلامه، أما الإلهام فيشرق على الإنسان من غير واسطة ملك، وذلك بالوجه الذي للحق مع كل موجود. فالإلهام أعم من الوحي، لأن الوحي مشروط بالتبليغ، ولا يشترط ذلك في الإلهام [...] والإلهام ليس سبباً يحصل به العلم لعامة الخلق، يصلح للبرهان والإلزام، وإنما هو كشف باطني، أو حدس، يحصل به العلم للإنسان في حق نفسه».(٥٤) وتحصيل الإلهام لا على وجه اليقين والقطع، كما هي الحالة في الوحي، وإنما على أساس الاحتمال الاقناعي.

أما ما عبَّر عنه رودنسون: من أن الرسول وصل إلى مرحلة من مراحل الزهد، ولم يشعر انه وصل إلى مرحلة الاتحاد بالله، وهذه مرحلة من مراحل التصوف. فإن هذا الكلام باطل وذلك:

أولاً: إنه: «مغاير لمفهوم الوحي، وطريقته الذين خاطب الله بهما رسله وعلمهم من خلالهما، مع استقلال في شخصية الوحي، بعيدة عن مراتب الفراسة والتجانس الروحي، واستقلال في المتلقى بعيد عن الاستنتاج الذاتي، أو التعبير المطلق بكل صوره».(٥٥)

ثانياً: إن عملية الوحي تخضع لتصور حوار علوي بين ذاتين: «ذات متكلمة آمرة معطية، وذات مخاطبة مأمورة متلقية».(٥٦) إذن يوجد فرق بين الذات المتكلمة والذات المخاطبة وهذا الفرق يوجب تغايرهما وعدم اتحادهما في صورة واحدة على الإطلاق. وبما يزيد الفرق وضوحاً ورود عدة آيات بهذا الشأن، منها إعلامه بالعفو عن ذنبه ما تقدم منه وما تأخر: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾(٥٧) ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ .(٥٨) وغيرها من الآيات والحوادث كحادثة تغيير القبلة، حديث الإفك وغيرها، مما يفيد أن الوحي لم يكن أمراً خاضعاً لإرادة النبي، وأنه كان خارجاً عن الذات. وبناء على هذا التقسيم تنتفي فكرة الاتحاد أو الحلول التي رفضها الإسلام رفضاً كاملاً.

ثالثاً- الوحي كلامياً وفلسفياً:

١- الوحي كلامياً:

إن للإنسان مجموع إدراكات تنبع من صميم الذات، وهي نتاج أدوات المعرفة بأشكالها المختلفة ، حسية كانت أو عقلية أو وجدانية، ويعتبر الوحي إحدى وسائل تحصيل المعرفة، إلا أنه لا يندرج تحت أي من هذه المدركات، فهو ليس نتاج الحس ولا العقل؛ لأن: «**الإدراكات العادية التي يُحصّلها الإنسان عن طريق الحس، أو عن طريق التفكر والاستدلال، هي نتاج أدوات المعرفة الحسية والعقلية، فإدراك المبصرات والمسموعات وغيرها، رهنٌ إعمال الحواس، كما أن الوقوف على الأصول الفلسفية والعلمية، نتاج إعمال الفكر والعقل. [...] الوحي الإلهي هو إدراك خاص يتميز به النبي عن سائر الإدراكات**».(٥٩)

فهو: «**إذن حصيلة الاتصال بعالم الغيب، ولا يصح تحليله بأدوات المعرفة، ولا بالأصول التي تَجهَز بها العلم الحديث. ولما كان العالم المادي غير مذعن بعالم الغيب، ويرى أن الوجود مساوق للمادة والطاقة، فيشكل عليه الإذعان بهذا الإدراك الذي لا صلة له بعالم المادة وأصوله**».(٦٠)

واعتماد النبوة طريقاً للمعرفة لا يعني هضماً لقيمة العقل والحس ودورهما في

المعرفة، ذلك أن لهما ميداناً لا يتجاوزانه، وهو عالم الشهادة. كما أنه لا يمكن إنكار الطريق الآخر للمعرفة فمن خلال قوانينه (عالم الشهادة) يستطيع أن يحكم بمبدأ عالم الغيب، فكيف يدعي العقل أن فيه الكفاية النهائية للمعرفة، وهو نفسه لا يستطيع أن يدعي عصمة معرفته العقلية، بدلالة اختلاف العقول في ما بينها في القضية الواحدة، بل اختلاف العقل مع نفسه في القضية الواحدة أيضاً بين وقت وآخر. وعلى ذلك، فطريق الوحي ينال إمكان تسليم العقل وتجويزه، ولا يقف العقل السليم منه موقف العداء، فضلاً عن أن طريق الوحي لا يحرم العقل دوره في المعرفة.(٦١)

إذن لا يستطيع الإنسان بمفرده أن يحصل على المعرفة، وفي نفس الوقت فهو يحتاج إلى مصدر آخر للمعرفة يقبله العقل، وتتطلبه الفطرة الإنسانية، يأخذ بها إلى مدارج الكمال الذي يسعى كل إنسان، وهو الوحي.

٣- الوحي فلسفياً:

سلك المشائيون من فلاسفة الإسلام مسلكاً خاصاً في تحليل الوحي ،لا يمت إلى ما سبق من التحليلات بصلة، حيث قاموا بإثباته من خلال أمور عدة(٦٢):

أولاً: قاعدة الواحد لا يصدر منه إلا الواحد، وأن الله تعالى صدر منه الصادر الأول وهو العقل الأول، ثم أفاض الوجود فأوجد العقل الثاني، ثم أوجد الثاني والثالث إلى أن انتهى الفيض بإيجاد العقل العاشر، وهو المسمى عندهم العقل الفعّال.

ثانياً: إن ما يقوم به العقل العاشر من الفعل والإفاضة هو تكميل النفوس الإنسانية أولاً وإفاضة الصور الجوهرية على عالم المادة ثانياً.

ثالثاً: إن الإنسان مجهز بالحواس الظاهرية الخمس المعروفة كما هو مجهز بحواس باطنية خمس هي:

١- **الحس المشترك**: وهو القوة المدركة لما يرد العقل عبر الحواس الخمس الظاهرية.

٢- **الخيال**: وهو مخزن الصور المحسوسة المأخوذة من الحس المشترك.

٣- **الواهمة**: وهي القوة المدركة للمعاني الجزئية، كالعداوة والصداقة.

٤- **الحافظة**: وهي مخزن المعاني الجزئية المرسلة من الواهمة.

٥- **العاقلة**: وهي القوة المدركة للمفاهيم الكلية والحقائق المطلقة عن المادة وآثارها.

رابعاً: إن النفوس الضعيفة غير الكاملة أسيرة القوى الباطنة، أما النفوس القوية

الصافية، فإن بإمكانها الخروج من هذا الإطار والاتصال بالعقل الفعّال، اتصالاً روحياً معنوياً، وتلقي الحقائق والمعارف من ذلك الموجود النوراني.

والوحي ليس إلا انعكاساً لما في العقل الفعّال من المعارف والعلوم على عقل النبي، فإذا تمّ استعداد النبي وصَفَت نفسه استعداداً للاتصال بذلك العالم الأعلى، فاضت عليه الحقائق والدقائق بصورة معارف كلية، وهذا الاتصال، والتنزل، وتلقي المعارف، وتمثّل الملك، ومشاهدته، وسماع الصوت، والكلام المنظوم هي أمور واقعية، لكل منها درجة من الواقعية.

أما سبب نزول الوحي كما أشار إليه صدر الدين الشيرازي، فعائد: «**إلى تجرد الروح الإنساني عن البدن، فإذا تجرد وخرج عن وثاقه من بيت قالبه وموطن طبعه مهاجراً إلى ربه لمشاهدة آياته الكبرى، وتطهر عن درن المعاصي واللذات والشهوات والوساوس العارية والتعلقات، لاح له نور المعرفة والإيمان بالله وملكوته الأعلى. وهذا النور إذا تأكد وتجوهر كان جوهراً قدسياً يسمى عند الحكماء في لسان الحكمة النظرية بالعقل الفعال وفي لسان الشريعة النبوية بالروح القدس، وبهذا النور الشديد العقلي يتلألأ فيه أسرار ما في الأرض والسماء[...]**».(٦٣)

ثم يبين الشيرازي أنه عندما تصل الروح القدسية إلى مرتبة لا يشغلها شأن عن شأن، تلقت المعارف الإلهية من دون تعلم بشري بل من الله تعالى، عندها: «**يتعدى تأثيرها إلى قواها، وتتمثل لروحه البشرى صورة ما شاهدها بروحه القدسي، وتبرز منها إلى ظاهر الكون- فيتمثل للحواس الظاهرة سيما (لا سيما) السمع والبصر لكونهما أشرف الحواس الظاهرة، فيرى ببصره شخصاً محسوساً في غاية الحس والصباحة ويسمع بسمعه كلاماً منظوماً في غاية الجودة والفصاحة، فالشخص هو الملك النازل بإذن الله الكامل للوحي الإلهي، والكلام هو كلام الله وبيده لوح فيه كتاب هو كتاب الله.**

وهذا الأمر المتمثل بما معه أو فيه، ليس مجرد صورة خيالية لا وجود لها في خارج الذهن والتخيل، كما يقول من لا حظّ له من الباطن، ولا قَدَم له في أسرار الوحي والكتاب كبعض أتباع المشائين، معاذ الله عن هذه العقيدة الناشئة من الجهل بكيفية الإنزال والتنزيل».(٦٤)

٤- الوحي علمياً:

لم ينف العلم كذلك ثبوت الوحي، بل أثبته من خلال الواقع الخارجي الذي يرينا الكثير من الأشياء التي لم نرها ولم نسمعها وهي تجري حولنا في كل لحظة ومع ذلك فنحن

نسلم بوجودها. وفي هذا يقول وحيد الدين خان: «استطاع العلم أن ييسر لنا إدراكها عن طريق الأجهزة العلمية التي اخترعناها وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بضعة أميال وكأنه يطير عند أذنك [...].

ومنها ما يُسجل صدام الأشعة الكونية في الفضاء، وتسمعك أشياء لا يمكن سماعها بالطرق السمعية التقليدية. وهذه الطاقة غير العادية للسماع لا تخص الدلالات العلمية الحديثة فحسب، وإنما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضاً، التي تسمع أصواتاً تخرج عن نطاق أسماعنا ولقد أثبتت البحوث في هذا الميدان أن بعض الحيوانات يتمتع بقوة الإشراق TELEPATHY, فلو أنك وضعت حشرة مما يطلق عليه (MATH) أو العثة وهي حشرة مُجنحة، على نافذة مفتوحة فستحدث صوتاً يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جداً ولسوف يجيبها هذا الزوج أيضاً بطريقته.[٦٥]

أما الزرقاني فيعتمد على التنويم المغناطيسي لإثبات الوحي من الناحية العلمية، ويعتبره دليلاً علمياً قام بإثباته العديد من العلماء، وقد اعترفوا بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلفة من الخلق، وقد أثبتوا بوساطته أن للإنسان عقلاً باطناً أرقى من عقله المعتاد، وأنه يسمع ويرى ويقرأ من وراء حجب، والروح فيه تنتقل عن الجسم وغير ذلك.[٦٦]

وقد ثبت لدى الزرقاني بهذه التجربة من طريق علمي، ما قرّب إليه الوحي عملياً، وما جعله يُعلله تعليلاً علمياً: «فالوحي عن طريق الملك عبارة عن اتصال الملك بالرسول اتصالاً يؤثر به الأول في الثاني، ويتأثر فيه الثاني بالأول، وذلك باستعداد خاص في كليهما، فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير؛ لأنه روحاني محض، والثاني فيه قابلية التلقي عن هذا الملك لصفاء روحانيته، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك، وعند تسلط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية، ويظهر أثر التغير عليه، ويستغرق في الأخذ والتلقي عن الملك، ويطبع ما تلقاه في نفسه، حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد إلى حالته الأولى، وجد ما تلقاه ماثلاً في نفسه، حاضراً في قلبه، كأنما كتب في صحيفة فؤاده كتاباً».[٦٧]

ثم يتساءل كيف يمكن للمخلوق التأثير في نفس مخلوق آخر ذلك التأثير بواسطة التنويم المغناطيسي، ثم لا يستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثر في نفس من شاء من عباده بواسطة الوحي.[٦٨]

٤- الوحي لغةً:

لم ترفض اللغة وجود الوحي بل أثبتته بعدة تعابير توحي إلى الكلمة بمعنى فمنهم من اعتبر فيه الخفاء ومنهم اعتبر السرعة.

فقد جاء في لسان العرب: «أصل الوحي في اللغة كلها، إعلام في خفاء، ولذلك سمي الإلهام وحياً».(٦٩)

أما الراغب فمال إلى الثاني «أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة بعض الجوارح وبالكتابة».(٧٠)

وابن فارس أرجع الكلمة إلى اصلها فاعتبر «الواو والهاء والحرف المقتل: أصل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك، فالوحي: الإشارة والوحي بالكتاب والرسالة وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى عمله فهو وحي كيف كان. وأوحى الله تعالى ووَحَى».(٧١)

الخاتمة:

١- تبين من هذا البحث أن المستشرقين ركزوا على دراسة الإسلام وشخصية الرسول لدوافع خاصة تفتقد إلى المنهجية والموضوعية العلمية، وذلك بعد عرض لأرائهم والوقوف على نقاط التعارض والتناقض بين الأقوال.

٢- إن النتائج التي توصلوا إليها لم تعتمد على أدلة مؤيدة لآرائهم، بل هناك ما يرد بالتحليل العلمي والوقوف على بعض نقاط حياة الرسول كل ادعاءاتهم.

٣- إن عجزهم عن فهم الوحي وكيفية صدوره، يعود إلى عدم اعتقادهم بالأمور الغيبية التي تستبطن إيماناً وتحتاج إلى أدلة خاصة، بينما نجد أن بعض الأمور غير المحسوسة الأخرى هي مورد قبول عندهم أمثال التنويم المغناطيسي.

٤- إن الوحي ممكن كلامياً باعتباره إدراكا خاصا يتميز به النبي، وهذا الإدراك لا يحصل عن طريق الحس أو التفكر؛ لأنهما نتاج أدوات حسية وعقلية، بينما الوحي حصيلة اتصال بعالم الغيب، ومنه لا يصلح للخضوع لمخيلته وفهمه بأدوات المعرفة، ولا بالأصول التي تجهز بها العلم الحديث.

٥- إمكانه فلسفياً، من خلال العقل الفعّال الذي تنحصر مهمته بالإفاضة لتكميل النفوس الإنسانية، وسبب نزول الوحي يعود إلى تجرد الروح الإنساني عن البدن لتهاجر إلى ربها بعد تطهرها من الدرن والمعاصي، ليلوح بها هنا، نور ومعارف إلهية بلا تعلم بشري بل من الله تعالى.

الهوامش

(١) راجع: فروخ، عمر(د): الإسلام في نطاق العلم وفي نطاق السياسة، بحث من كتاب :الإسلام والمستشرقون، لنخبة من العلماء المسلمين،، ط ١ ،عالم المعرفة، لا بلد، ١٩٨٥م، ج٥، ص١٢٥.

(٢) راجع :أبو سعده، محمد حسيني(د): الاستشراق والفلسفة الإسلامية. ط ١، دون بلد، ١٩٩٥م، ص٤٦.

(٣) جولد تسيهر، إجناس: العقيدة والشريعة في الإسلام (تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية) نقله إلى العربية وعلّق عليه: محمد يوسف موسى، وعبد العزيز عبد الحق، وعلي حسن عبد القادر، لا ط ، دار الرائد العربي، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٤٦م، ص٥و٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٧.

(٥) المصدر نفسه، م.ن، ص٦.

(٦) المصدر نفسه، ص٧.

(٧) المصدر نفسه، ص٨.

(٨) المصدر نفسه، ص٩و١٠.

(٩) وات، مونتجمري: محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، لا.ط، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، لا.ت، ص١٤٠. و: الإسلام والمسيحية ، ص٣٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٠٨.

(١١) المصدر نفسه، ص ٩٥.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(١٣) وات، مونتجمري: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، الشيخ ، عبد الله عبد الرحمن (د) ، لا. ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٨م ، ص٥٣.

(١٤) راجع: المصدر نفسه، ص٥٣.

(١٥) المصدر نفسه، ص٥١.

(١٦) راجع: المصدر نفسه، ص٥١.

(١٧) المصدر نفسه، ص٥٢.

(١٨) وات، مونتجمري، محمد في مكة، م س ، ص١٠١.

(١٩) المصدر نفسه، ص٢٠٥.

(٢٠) وات ، مونتجمري: محمد في المدينة، تعريب شعبان بركات، لا.ط ، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، لا.ت،، ص٤٩٧.

(٢١) سورة الأحزاب، الآية ٢٧.

(٢٢) راجع: المصدر نفسه، ص٤٩٦.

(٢٣) راجع: وات مونتجمري، الإسلام والمسيحية، مصدر سابق، ص٢٠٦.

(٢٤) راجع: المصدر نفسه، ص٢٠٧.

(٢٥) راجع: المصدر نفسه، ص٢٠٨.

(٢٦) المصدر نفسه، ص٢٠٨.

(٢٧) راجع: المصدر نفسه، ص٢١١.

(٢٨) المصدر نفسه، ص٢١٢.

(٢٩) المصدر نفسه، ص١٢٢.

(٣٠) م.ن، ص١١٢.

(٣١) الحاج، ساسى سالم (د)، نقد الخطاب الاستشراقي الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ط١، دار المداد الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٣٠٥: نقلاً عن رودنسون، محمد، ص١٠٦.

(٣٢) المرجع نفسه، ص٣٠٢، (نقلاً عن المصدر نفسه)، ص ١٠٢.

(٣٣) راجع: المرجع نفسه، ص٣٠٣، (نقلاً عن المصدر نفسه).

(٣٤) راجع: المرجع نفسه، ص ٣٠٣. (نقلاً المصدر نفسه، ص١٠٦ بتصرف).

(٣٥) المرجع نفسه، ص٣٠٩.

(٣٦) سورة الفرقان، الآية ٤-٥.

(٣٧) سورة الفرقان، الآية ٦.

(٣٨) الجندي، أنور: «المستشرقون والقران الكريم» مقال من كتاب الإسلام والمستشرقون، نخبة من العلماء المسلمين،، ط١، عالم المعرفة، جدة ١٩٨٥م، ص٢٠٧.

(٣٩) سورة النجم، الآيات ١-٤.

(٤٠) مرجع سابق، ص ٣١١.

(٤١) راجع: المرجع نفسه، ص ٣١١.

(٤٢) ا بن نبي، مالك: الظاهرة القرآنية، ط٤، دار الفكر، دمشق، إعادة ٢٠٠٠م، ص١٤٣.

(٤٣) عبد الله، محمد الأمين: الاستشراق في السيرة النبوية، دراسة تاريخية (وات، بروكلمان، فلهاوزن) مقارنة بالرؤية الإسلامية، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، لا بلد، ١٩٩٧م، ص٤٥.

(٤٤) راجع: الحاج، مرجع سابق، ص ٣٠١.

(٤٥) المرجع نفسه، ص ٣٠٧.

(٤٦) الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص٢٦.

(٤٧) المصدر نفسه، ص٢٧.

(٤٨) المصدر نفسه، ص٢٧.

(٤٩) راجع: مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ط٤، دار الفكر دمشق، اعادة ٢٠٠٠م.ص، ١٤٤. بتصرف.

(٥٠) الصغير، محمد حسين علي،(د): المستشرقون والدراسات القرآنية، ط١، دار المؤرخ العربي، بيروت، ١٩٩٩م، ص٤٢.

(٥١) صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، لا.ط، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩٤م، ج٢، ص٥٧٠.

(٥٢) الصغير، مصدر سابق، ص٤٢.

(٥٣) راجع: المصدر نفسه، ص٤٢.

(٥٤) المعجم الفلسفي، ج١، ص ١٣١.

(٥٥) راجع: الصغير، مصدر سابق، ص٤٣.

(٥٦) الصالح، مصدر سابق، ص٢٧.

(٥٧) سورة التوبة، الآية ٤٣.

(٥٨) سورة الروم، الآية٢.

(٥٩) السبحاني، جعفر: (مجموعة محاضرات)، تدون حسن مكي، الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، ط٣، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم، ١٤١٢هـ، ج٣، ص١٢٨.

(٦٠) المصدر نفسه، ص١٢٩.

(٦١) راجع: الكردي، عبد الحميد: نظرية المعرفة بين القرآن والسنة، مكتبة مؤيد، ط ١، الرياض، ١٩٩٢م، ص ٧١١.

(٦٢) راجع: السبحاني: مصدر سابق، ص١٤٦.

(٦٣) الشيرازي، صدر الدين: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨١، ج٧، ص٢٣.

(٦٤) المصدر نفسه، ص٢٤.

(٦٥) راجع :وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، ترجمة ظفر الإسلام خان، ط٦، دار البحوث العلمية، دون بلد، ١٩٨١، ص١٠٨.

(٦٦) راجع :الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٣، ص٤٦ (بتصرف)

(٦٧) المصدر نفسه، ص٤٣ و٤٤.

(٦٨) المصدر نفسه، ص٤٤.

(٦٩) ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، ط ١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨، ج١٥، ص٢٤١.

(٧٠) الأصفهاني، الراغب: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط ١ ،بيروت، ذوي القربى، الدراسات الشامية،١٩٩٦م، ص٨٥٨.

(٧١) ابن زكريا، احمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، ط ١، بيروت ،تحقيق عبد السلام محمد هارون،، دار الجيل، ١٩٩١م، ص٩٣.